علماء قفصة

في عصر ابن راشد

الأستاذ ابو القاسم محمد كرو

عاش الشيخ الامام أبو عبد الله محمد بن راشد القفصي بين القرنين السابع والثامن الهجريين .. وعلى التحديد من منتصف القرن السابع إذ يرجح انه ولد في العقد الخامس منه الى وفاته سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٦ م . فهو اذن من المعمرين اذ عاش زهاء التسعين سنة .

ومن حسن حظ ابن راشد أن هذه المدة التي عاشها ـ وهي زهاء القرن ـ قد كانت من أكثر العهود أمنا واستقرارا .. لا في بلده قفصة فقط بل وفي افريقية (أي تونس) بوجه عام .

وذلك باستثناء الحملة الصليبية الثامنة على تونس بقيادة لويس التاسع عام ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م ، وبعض الفتن الداخلية وأخطرها حركة ابن مرزوق الدعيّ الذي زعم أنه الفضل بن يحي الواثق الحفصي ، فاستولى على السلطنة الحفصية بعض الوقت ، زاحفا من الجنوب وقادما من طرابلس حيث ظهرت فيها دعوته ، وتمكن من الاستيلاء على العاصمة نفسها (٦٨١ هـ / ١٢٨٣ م) ، بعد أن بايعته معظم المناطق والمدن ، بما فيها مدينة قفصة وتوابعها . الا انه بعد القضاء عليه عام ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م عاد الأمن والاستقرار ليشمل البلاد من جديد وليمتد ظله الى آخر أيام ابن راشد .

ولكن من سوء حظ ابن راشد أن هذه المدة نفسها قد كانت بداية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الانحدار والتدهور في حياة هذه المدينة ، لا في الميادين الاقتصادية والاجتماعية فقط ، بل في الميادين العلمية والأدبية أيضاً . وذلك خلافا لما كانت عليه تلك الميادين نفسها ، في هذا العصر ذاته ، بتونس العاصمة وبعض المدن البحرية الأخرى ، التي ازدهرت فيها الصناعة والتجارة ، وشهدت نهضة علمية وأدبية كبيرة بفضل هجرة الأندلسيين اليها ، وبفضل عائداتها المالية من الصادرات والمبادلات التجارية ومن القرصنة كذلك .

ومعلوم أن هذه المدينة قد أخذ نجمها في الأفول منذ تولى أمرها الموحدون في منتصف القرن السادس . ولا سيا بعد أن هدم سورها التاريخي الحصين أبو يعقوب يوسف المنصور عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م .

وكنت تحدثت عن هذه النكبة عام ١٩٨١ م ـ في ملتقى ابن منظور السادس ـ وكان مما قلته آنذاك : إن أي مدينة بلا سور ـ في تلك العصور ـ هي مدينة بلا حياة !

وحقاً فان حضارة هذه المدينة ، بكل مظاهرها ، قد أخذت في التراجع والانحطاط مع مطلع القرن السابع ، ولم ينته هذا القرن حتى أصبحت مدينة قفصة قرية زراعية همُّ أهلها أن يعيشوا في سكون ومذلة ، خشية طمع الطامعين ونقمة السلطة المركزية ، هذه السلطة التي لم يكن يعنيها شيء سوى الجباية واستنزاف الخيرات .

وهذه الحقيقة يؤكدها لنا وجود حامية عسكرية دائمة وحاكم قويّ ، غالباً ما يكون أحد أبناء السلطان الحفصي نفسه .

ولئن أعيد بناء السور أكثر من مرة بطريقة عشوائية وبسيطة ، إن هدمه وتخريب الواحة ـ وهي المصدر الوحيد للرزق والحياة ـ كان دائما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سياسة الوعيد والعقاب والاذلال من كل الغزاة والثائرين وحتى من ممثلي السلطة المركزية نفسها .

وهكذا كان القرن السابع قرن التراجع والتدهور في حياة هذه المدينة ، وبالتاكيد كانت القرون التالية اكثر سوءاً واستمراراً في الهبوط والتخلف .

يقول شاهد عيان ، وهو الحسن الوزان المعروف بـ (ليون الافريقي) الذي زارها بعد ثلاثة قرون من نكبتها ، يقول : « وعاد اليوم عمران قفصة كاملا ، لكن ليس فيها سوى بناءات متواضعة باستثناء بعض المساجد . أزقتها واسعة جدا وكلها مرصوفة بالحجر الاسود كنابلي وفلورنس ، والسكان متحضرون لكنهم فقراء ، لأنهم مثقلون بالإتاوات من قبل ملك تونس[1] » .

وهكذا يمكننا ان نستخلص حقيقتين كبيرتين واضحتين في حياة ابن راشد وحياة هذه المدينة في عصره .

الحقيقة الأولى : تراجع المدينة المتواصل في شتى مظاهر الحياة والحضارة ، وبالخصوص الحياة العلمية والأدبية .

الحقيقة الثانية : ما عاناه ابن راشد من ضيق وتنغيص لحياته الشخصية في هذه المدينة ، بعد ان عاد اليها ـ بعزم ثابت على الاستقرار ـ اواخر القرن السابع ، عاد اليها عالماً كبيرا وقاضيا يمثل السلطان والشريعة في ربوعها .

فقد وجد الفرق شاسعاً بين ما كانت عليه حياتها العلمية والأدبية في طفولته وفجر شبابه بها منتصف القرن نفسه وبين ما آل اليه أمرها مع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نهاية القرن عندما عاد اليها مزهوّاً بعلمه ، متطلعاً الى الاشعاع والعطاء .

ومن يقرأ الرائع الأخاذ لربوع بلده وماتميزت به هذه الربوع من جمال في الطبيعة وتنوع في الثمار والخيرات ـ مما ينم ويعبر بصدق عن حب ابن راشد لمدينته وشغفه بها وحنينه الدائم اليها ، من يقرأ هذه المشاعر الزاخرة بالحب والفياضة بالاعجاب يستغرب ، غاية الاستغراب ، من تحول ذلك كله الى ضيق وكآبة في بلده ، وتوجع وشكوى من أهله .. بلغت به الى حد قول الشعر والاستشهاد به في وصف الحالة ، وكأنها كارثة أو محنة ليس لها مخلص أو نهاية .

بلد الفلاحة لو أتاها جَرْوَلٌ أعني الحطيئة لاغتدى حراثا
تصدا بها الأفهام بعد صقالها وترد ذكران العقول اناثا[1]

والحق أن الشاعر ـ سواء اكان ابن راشد او غيره ـ قد صوَّر فعلاً ، في هذين البيتين ، مأساة التاريخ في هذه المدينة ، أو قل ، ان شئت ، مأساة هذه المدينة مع التاريخ .

فهذه المدينة التي كانت مركز علم واشعاع ونور .. قد اصبحت بؤرة ظلام وجهل وجمود .. وبعد أن كانت مصنع العلماء والادباء والابطال .. صارت مزرعة متخلفة يعيش رجالها كالنساء في مستوى عقولهم (نساء القرون الوسطى ـ طبعا) لاهمَّ لهم سوى التناحر وخدمة المتسلط والاستسلام الكامل الى الجهل والخوف والاستخذاء .

[(1) البيتان لأبي تمام الطائي من قصيدته التي مدح بها مالك بن طوق ومطلعها :
قف بالطلول الدارسات عُلاثا أمست حبالُ قطينهنّ رِثاثا
انظر ديوان أبي تمام بشرح التبريزي ج ١ ، ص ٣١٤ ـ ٣٢٥ / المجلة] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والواقع ان التاريخ - في عصر ابن راشد - لم يحدثنا عن حياة هذه المدينة بشيء أفضل من ذلك .

واذا قلنا ان ابن راشد هو آخر العلماء والأدباء الافذاذ والكبار الذين أنجبتهم هذه المدينة طوال القرن السابع وما بعده فاننا لا نكون قد ظلمنا احدا او تجاوزنا الحقيقة .

وبالطبع فإننا نستثني عالما واحدا هو العلامة الموسوعي أحمد بن يوسف التيفاشي الذي توفي عام ٥٦١ هـ / ١٢٥٣ م ، أي عندما أبصر ابن راشد النور في هذه المدينة ، وبدأ يحبو فوق ترابها . لكن التيفاشي القفصي كان عندئذ قد هاجر هو الآخر من هذه المدينة بعد أن تولى فيها القضاء وعزل منه ، تماماً كما حدث لابن راشد بعده بنصف قرن .

ومن المفارقات الأخرى أن التيفاشي قد كان في الثالثة من عمره عندما حلت نكبة الموحدين الكبرى بهذه المدينة عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م . وان شفاعة أبيه القاضي يوسف التيفاشي هي التي أنقذت سكان المدينة من الابادة ، وإن لم تنقذ سورها الحصين وغابتها الشاسعة الرائعة من الدمار والاتلاف .

لقد أنجبت هذه المدينة (قفصة) في القرن السابع عالمين كبيرين : التيفاشي وابن راشد ، تميز كل منهما بالنبوغ والتفوق ، وبالعلم الغزير والشهرة الواسعة .

فقد بلغت مؤلفات ابن راشد ستين مجلدا .. شملت ما يقرب من عشرين عنوانا وموضوعا .. عرفنا منها احد عشر عنوانا توزعت بين الفقه والاصول والتفسير والأدب والعربية وتعبير الاحلام الذي هو احد فروع علم النفس الحديث .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اما مؤلفات التيفاشي فقد بلغت زهاء الخمسين مجلدا بينها موسوعته البالغة اربعين مجلدا .. ولكن لم يصلنا منها سوى مجلدين تحت اسم جديد وضعه لها ابن منظور بعد ان اختصرها في عشر مجلدات بعنوان « سرور النفس بمدارك الحواس الخمس »[٢] .

كما وصلتنا خمسة كتب أخرى للتيفاشي .. واحد منها في « الاحجار والمعادن النفيسة » واثنان في الطب والحياة الجنسية والرابع في الطب النبوي والخامس في الموسيقى والرقص .

لكن مدينة التيفاشي وابن راشد ، رغم النكبات والتراجع المستمر لم تصب أبداً بالعقم او المحل في حياتها العلمية والادبية ، وهذا ما يعكس صورة اخرى أجمل وأدق من صورة الفلاحة والعقم التي عبر عنها ابنُ راشد في حالات غضبه على أهل بلده .

ولئن لم تنجب قفصة أفذاذاً من طراز ابن راشد والتيفاشي طوال القرنين السابع والثامن ومابعدهما . إنها أنجبت عشرات آخرين منذ القرن السابع وحتى نهاية القرن الثالث عشر .

ويجب الاعتراف هنا بأن مستوى هؤلاء جميعا كان دائما متوسطا او دون المتوسط .

والظاهرة الثانية التي تميز بها جميع من جاء بعد ابن راشد من العلماء والادباء هي النزوح عن هذه المدينة وعدم البقاء فيها الا اضطرارا . والاستثناء الوحيد الذي يذكر في هذا السياق هو نبوغ عدة أجيال من أسرة واحدة ، هي أسرة ابن عقيبة التي أنجبت عددا من العلماء والأدباء كانت لهم مكانة مرموقة في عصرهم ، وتفوقوا في الأدب والتصوف وعلوم الشريعة وفي الرياضيات ، وكان بينهم شعراء .

وبما أننا حددنا الامتداد الزمني لموضوعنا بعنوان (علماء قفصة في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عصر ابن راشد) فاننا سنقتصر على :

اولا ـ ضبط قائمة بأسمائهم على مدى القرنين السابع والثامن ، بحيث تشمل كل من عاش ولو مدة قصيرة من حياته في هذين القرنين . وسيشمل هذا كل من ولد في السادس ومات في السابع كالتيفاشي ، وكل من ولد في الثامن وتوفي في التاسع كابن عقيبة والمخزومي .

ثانيا ـ سنشير بايجاز واقتضاب كاملين الى ذوي الشهرة والمكانة الكبيرة منهم ، على أمل العودة اليهم بالتفصيل في مناسبة قادمة ، أو في الكتاب الموعود عن علماء قفصة وشعرائها .

ثالثا ـ ان معظم الذين سأذكرهم لم تصلنا معلومات واسعة او مفصلة عنهم . بل ان عددا لايقل عن نصف القائمة الآتية لم يرد عنه في المصادر الموثوق بها سوى سطر او سطرين ، وفي أحسن الظروف نسب له بيت أو بيتان من الشعر .

رابعا ـ الكثير منهم لم نصل الى ضبط تاريخ ميلاده أو وفاته .. واحيانا لم نعرف الا القرن الذي عاش فيه .. وقد نستنتج ذلك من القرائن فقط .

والآن .. سنبدأ مع مطلع القرن السابع .. وعلى التحديد بمن كانت وفاتهم في بدء هذا القرن ، وهم :

١ ـ أبو الحجاج يوسف القفصي الشافعي (٦٠٣ هـ / ١٢٠٧ م)
٢ ـ ابراهيم بن محمد بن أبي بكر بن هراوة الشافعي (٦٠٩ هـ / ١٢١٣ م)
٣ ـ أبو علي الحسن بن ابراهيم بن عمران القفصي (٦١٠ هـ / ١٢١٤ م)
٤ ـ محمد الشقراطيسي (٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م)
٥ ـ الجمال بن القفصي (٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ م)
٦ ـ عبد الله القفصي (ق ٧ هـ / ١٣ م)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٧ ـ أحمد بن يوسف التيفاشي (٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م)
٨ ـ محمد بن عبد الله الهواري (٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م)
٩ ـ محمد بن أبي بكر بن أبي زكريا البلوي (٦٧١ هـ / ١٢٧٢ م)
١٠ ـ القفصي التبي (ق ٧ هـ / ١٣ م)
١١ ـ أبو إسحاق إبراهيم القفصي المحدث (ق ٧ هـ / ١٣ م)
١٢ ـ عبد اللطيف القفصي الشاعر (كان حياً ق ٧ هـ / ١٣ م)
١٣ ـ أبو بكر بن حرز الله بن حجاج (ق ٧ هـ / ١٣ م)
١٤ ـ القفصي المغربي = كان من اكابر العلماء (ـ ؟ ـ)
١٥ ـ الامام العالم فخر الدين علي بن القفصي (ق ٧ هـ / ١٣ م)
١٦ ـ الفقيه الأديب علي بن عسيلة (٧٣٥ هـ / ١٣٣٥ م)
١٧ ـ محمد شمس الدين بن سليمان القفصي (٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م)
١٨ ـ محمد بن يوسف بن الصالح الدمشقي شمس الدين القفصي
(٧٠١ـ٧٧٤هـ/١٣٠١ـ١٣٧٢م)
١٩ ـ عبد الله بن عبد الرحمن القفصي المالكي (٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م)
٢٠ ـ محمد بن محمد بن سليمان القفصي والد علم الدين الآتي
(٧٨٤هـ / ١٣٨٢ م)
٢١ ـ أبو مدين شعيب العمراوي القفصي (٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م)
٢٢ ـ ابنته فاطمة (ـ ؟ ـ)
٢٣ ـ ابنه علي (ـ ؟ ـ)
٢٤ ـ البرهان إبراهيم القفصي (كان حيا ٨٠١هـ / ١٣٩٨ م)
٢٥ ـ محمد بن مسافر القفصي (٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م)
٢٦ ـ ابو بكر عبد الله السني (كان حيا ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢ م)
٢٧ ـ علم الدين محمد بن محمد القفصي ـ قاضي قضاة المالكية بدمشق
(٧٥٠ ـ ٨٠٥ هـ / ١٣٤٩ ـ ١٤٠٢ م)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٢٨ ـ محمد بن مسافر العامري القفصي (ق ٩ هـ / ١٥ م)
٢٩ ـ أبو يحيى أبو بكر بن عقيبة (٧٥٠؟ ـ ٨٢٨ هـ / ١٣٥٠ ـ ١٤٢٥ م)
٣٠ ـ محمد القفصي المخزومي المحدث (٧٧٦ ـ ٨٤٢ هـ / ١٣٧٤ ـ ١٤٣٨ م)

هؤلاء ثلاثون علما من أعلام قفصة طوال القرنين السابع والثامن .. وهو عدد ليس قليلا بأي حال وعلى أي مستوى كان . ومع أن أيّ واحد منهم لم يبلغ مكانة ابن راشد في الفقه والاصول ، أو مكانة التيفاشي في الطب أو الادب او التاريخ او الجغرافيا او البلاغة او العلوم الاخرى فإن أكثرهم كان في مستوى أمثاله في ذلك العصر . كما ان عددا منهم قد تولى مناصب التدريس والافتاء والقضاء ، ليس في مدينة قفصة بل في القاهرة ودمشق وحلب وحماة وغيرها من مدن الشرق . وبينهم كذلك شعراء ومؤلفون في الفقه والحديث والتصوف ، وفي اللغة والنحو والصرف وتفسير القرآن .

ولايتسع المجال لأن نتعرف عليهم أو نعرف بهم جميعاً ولو بايجاز .. لذلك سأكتفي بتقديم عدد قليل منهم نماذج عن الباقين :

مع مطلع القرن السابع نلتقي باثنين من علماء الحديث القفصيين .. ترجم لهما أكثر من واحد من مؤلفي كتب الطبقات .

وعلم الحديث ، رواية وتأليفا وتدريسا ، عريق لدى علماء قفصة ... فقد ابتدأ مع الحارث بن أسد القفصي (تلميذ الامام مالك) في القرن الثاني الهجري واستمر الى الشيخ تاج الآجري في القرن الثالث عشر ، بل والى الحسين بن المفتي من أعلام القرن الرابع عشر .

اما العالمان المعنيان هنا .. فهما :

١ ـ أبو الحجاج يوسف القفصي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٢ ـ أبو اسحاق ابراهيم القفصي

وقد ترجم لكليهما عبد العظيم المنذري في كتابه الرائق « التكملة لوفيات النقلة » . كما ترجم لكل منهما الذهبي وأبو شامة والعيني وابن الفرات والمقريزي .

ولئن شكك المنذري في ان أبا الحجاج القفصي لم يحدث بشيء .. لقد ترجم له مجاراة لغيره من المؤلفين .. فقال :

« وفي الثامن من صفر (٦٠٣ هـ / ١٤ / ٩ / ١٢٠٦ م) توفي الفقيه الأجل ابو الحجاج يوسف القفصي الشافعي المنعوت بالفخر بمصر .

ومولده في سنة سبع او ثمان وخمسين وخمسمائة (١١٦١) تفقه على مذهب الامام الشافعي وحصل منه طرفاً جيداً . وولي التدريس بالمدرسة السيفية التي بسوق الغزل بمصر[٣] .

واجتمعتُ معه . وما علمته حدث بشيء . وكان فاضلا بارعا نبيلا .

وقفصة بفتح القاف وسكون الفاء مدينة بقرب القيروان حدث من اهلها غير واحد[٤] .

والمنذري (ت ٦٥٨ هـ) من الرواة والمؤرخين الثقات لأهل الحديث .

وقد ترجم ايضا لمعاصره الآخر الذي لقيه في دمشق وهو أبو اسحاق ابراهيم القفصي فقال عنه ما يلي :

« وفي احد الربيعين (سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م) توفي الشيخ الفقيه أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن أبي بكر بن هراوة القفصي الشافعي بدمشق »[٥] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لم يفصل المنذري شيئا عن مشاركة أبي اسحاق القفصي في الحديث ، وان كان قد تبسط في ذكر مشايخه الذين التقاهم وأخذ عنهم في مصر وبغداد ودمشق حيث استقر نهائيا واشتغل مدرسا للحديث والفقه الشافعي الى وفاته بها .

وبوسعنا أن نضيف الى معلومات المنذري عن صاحبنا أن بعض مشايخه في دمشق قد أدركهم أيضاً ابو العباس احمد بن يوسف التيفاشي . ولا نشك ايضا في أن التيفاشي قد اجتمع بأبي اسحاق القفصي في دمشق مع مطلع القرن السابع ، وذلك لان التيفاشي أدرك بدمشق الشيخ تاج الدين الكندي (٦١٣ هـ) وأخذ عنه . ولعل ابا اسحاق كان ايضا من شيوخ التيفاشي في الوقت نفسه .

والأهم من هذا كله هي الآثار الحديثية التي سجلها أبو اسحاق وسمعها عنه تلامذة في دمشق .. ثم انتقلت الى الشيخ علي النوري الصفاقسي (١١١٨ هـ) وبقيت محفوظة في مكتبته بصفاقس الى العصر الحاضر ، وآلت الآن الى دار الكتب الوطنية .

فقد أفادني الصديق البحاثة الشيخ محمد محفوظ (حفظه الله) قبل نقل المكتبة الى تونس ـ في مراسلات قديمة بيننا ـ أنه توجد في مكتبة الشيخ النوري سماعات حديثية كتبت وسمعت من الشيخ أبي اسحاق القفصي في مدرسة الحنابلة بسفح قاسيون بظاهر دمشق . وان آخرها مؤرخ باليوم الثاني من ربيع الاول عام (٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م) ، اهـ .

اما شافعية هذين الشيخين فيمكن اعتبارها ناتجة عن ظروف التعليم المشرقي او اقتناصاً للمناصب حيث كان المذهب الشافعي هو السائد والمؤهل لمناصب التدريس والقضاء وذلك الى النصف الثاني من القرن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

السابع اذ أنه كان المذهب الرسمي الوحيد لدولة الأيوبيين . ومن منتصف هذا القرن أحدثت مناصب متوازية للمذاهب السنية الاربعة وخاصة للمالكي ، سواء في التدريس أو القضاء . وكثير من المغاربة المهاجرين الى الشرق كانوا ينقلبون الى المذهب الشافعي لضمان وظائف لهم . لكننا سنلاحظ ان القفصيين اللاحقين قد بقوا على مالكيتهم بل وتقلدوا وظائف التدريس والقضاء على مذهبهم المالكي في كل من القاهرة ودمشق وغيرهما من مدن الشرق.

٣ ـ عبد اللطيف القفصي الشاعر .

في نهاية القرن السابع الهجري كان قفصيّ آخر يعيش في القاهرة ...، وكان الشيخ تقي الدين محمد بن دقيق العيد من أشهر علمائها وفقهائها .. وهو الآخر من المهاجرين اليها ، اذ كانت نشأته بقوص (عاصمة الصعيد) .

وفي سنة ٦٩٥ هـ تولى ابن دقيق العيد منصب قاضي القضاة الشافعية .. وبقي في منصبه الى وفاته سنة ٧٠٢ هـ . وكان ـ على جلالة علمه وهيبة منصبه ، عطوفا بشوشا مع الجميع بمن فيهم من أصحاب اللسان الخبيث والهجائين من الشعراء .. وكان بين هؤلاء شاعر قفصي لم نعرف من أخباره وأشعاره سوى بيت واحد استهل به قصيدة في هجاء قاضي القضاة ابن دقيق العيد المذكور . وقد روى لنا القصة كاملة الشيخ كمال الدين الادفوي في كتابه : « الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد » . وكان صديقا للشاعر فنقل عنه مباشرة الحكاية التالية :

« وقال عبد اللطيف بن القفصي : هجوته مرة (أي ابن دقيق العيد) فبلغه ، فلقيته بالكاملية فقال : بلغني أنك هجوتني ، أنشدني ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فانشدته « بليقه » اولها :

قـــاضي القضـــاة عـــزل نفســـه لمـــا ظهر للنـــاس نحســـه

الى آخرها ، فقال : هجوت جيدا »[٦] .

وللاسف لم نجد باقي القصيدة ولا أي خبر أو معلومة أخرى عن شاعرنا القفصي . ولولا هذه الحادثة وتسجيل الادفوى لها وارتباطها بمنصب قاضي القضاة ، لما أمكن ان نعرف لا اسم الشاعر ولا تاريخ شعره . ويمكن القول ان شاعرنا قد كان بقيد الحياة في آخر سنوات القرن السابع ، ولا نعلم متى توفي ، ولعله كان في سن كمال الدين مؤلف الكتاب لانه كان صديقا له . وتوفي كمال الدين عام ٧٤٨ هـ . وان كونه صديقا له ومعاصراً لابن دقيق العيد ويذهب الى المدرسة الكاملية التي هي من أهم المدارس الايوبية وأشهرها ، كل هذا يشير الى مكانة الشاعر العلمية والأدبية في مكانه وزمانه .

٤ ـ أبو الحسن علي بن عسيلة .

في سنة ٧٣٥ هـ / ١٣٣٥ م أي سنة واحدة قبيل وفاة ابن راشد ، يفيدنا ابن القنفذ في وفياته بأن عالما قفصياً آخر معاصرا لابن راشد ، وربما كان من منافسيه أو مزاحميه على منصب قاضي المدينة ، قد توفي بقفصة . ولكنه لم يعطنا أي بيانات ولا تفاصيل عن حياة الرجل او مكانته أو مؤلفاته ، ان كانت له مؤلفات .

وقد يعود ذلك الى نوع التأليف الواردة فيه الوفاة ، اذ أن خطة المؤلف تقوم على ترتيب الوفيات وضبطها بالعقود والسنوات دون الترجمة لأصحابها . غير أنه نعت صاحبنا الجديد ببعض النعوت التي تشير ـ بلا ريب ـ الى أن الرجل كان من كبار العلماء والادباء .. وهذه الإشارة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا تؤخذ فقط من ادراج الرجل بين كبار المشاهير والعلماء المنسقين في الكتاب ... بل ومما عبر عنه المؤلف من صريح النعوت والمراتب حيث قال عنه ما يلي :

« وفي التي تليها (أي تلي سنة ٧٣٤ هـ) توفي الشيخ الفقيه الأديب ابو الحسن علي بن عسيلة بقفصة »[٧]

اذن .. صاحبنا فقيه وأديب ومدرج بين كبار العلماء والادباء ، ووفاته كانت بقفصة ، فهو لم يهاجر من بلده .

وفي السياق نفسه ، كتب ابن القنفذ مباشرة عقب حديثه عن ابن عسيلة ، كتب عن ابن راشد ما يلي :

« وفي سنة ست وثلاثين وسبع مئة توفي الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن راشد البكري القفصي بتونس . وأخذ عن شهاب الدين القرافي وغيره في العشرة الثامنة من المائة السابعة وله مصنفات ، منها شرحه لمختصر ابن الحاجب في الفقه ومنها الفائق في الاحكام والوثائق في سبعة أسفار وغير ذلك »[٨] .

ترون معي أنه زاد ابن راشد اسمين من كتبه ، ولكنه خص ابن عسيلة بالاديب ، أما الفقه فكلاهما فقيه .

ونجد اسم ابن عسيلة يرد في كتب الوفيات الأخرى بنفس الصيغة والأوصاف .. وقد أضيف له مرة نعت القاضي . ولعلنا نعثر يوماً على المزيد من المعلومات عنه . على انني اكاد اجزم بانه ليس اقل من ابن راشد ادبا وفقها ، وان لم يصل الينا شيء من آثاره .

٥ ـ شمس الدين القفصي

بعد ابن عسيلة وواحات قفصة ومحيطها نعود الى الهجرة والنزوح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مرة اخرى .. فعلماء قفصة كلهم تقريبا ـ الا النوادر ـ يحبون الرحلة والاغتراب . وكمثال جديد على ذلك . نمضي مع الزمن عشرين سنة اخرى ، وبالتحديد الى سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م ونختار هذه المرة مدينة دمشق ، وهي ثالثة العواصم التي كانت تجذب ، على الدوام ، أبناء هذه المدينة بعد القاهرة ومكة .

يقول ابن حجر في كتابه « الدرر الكامنة »[٩] ما يلي :

« محمد بن سليمان بن أحمد القفصي شمس الدين المالكي . قدم من المغرب ، وله فضيلة تامة ، فسكن دمشق وناب في الحكم . وكان تفقه بمصر ورحل الى دمشق في آخر صفر سنة عشرين وسبع مئة . وصار بصيرا بالأحكام . مات في شوال سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م » .

ونيابة الحكم تعني هنا أنه كان يتولى منصب قاضي قضاة المالكية بالنيابة . وهذا المنصب بالذات تولاه قفصيون آخرون من بعد شمس الدين وارتقى بعضهم الى منصب قاضي القضاة مثل الشيخ علم الدين القفصي المتوفى بدمشق ايضا عام ٨٠٥ هـ .

على ان عبارة ابن حجر توهم أن شمس الدين لم يتولّ منصبه الا بعد العشرين والسبع مئة ، بينما هو يريد أن يوضح فقط ان شمس الدين كان دائم التنقل بين القاهرة ودمشق ، ثم انقطع في دمشق من سنة عشرين . وتفيدنا مصادر اخرى ، ولا سيما الذهبي والنعيمي الدمشقي ، أن شمس الدين القفصي قد ناب في حكم المالكية من سنة تسع عشرة وسبع مئة .

والجدير بالذكر هنا ان الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة قد اجتمع به في دمشق وأكد لنا أنه كان يباشر القضاء في المدرسة الصمصامية[١٠] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٦ ـ محمد القفصي

سنبقى في دمشق مدة أخرى ، ونمشي مع الزمان واحدا وعشرين عاما حيث نلتقي مع قفصي آخر تولى هو أيضاً نيابة الحكم المالكي بها ، ولكنه كان الى ذلك من أهل الحديث ، بل ومن كبار المحدثين حتى تأهل لأن يتولى مشيخة الحديث بالمدرسة السامرية بدمشق .

ومشيخة الحديث لم تكن من المناصب العلمية الصغيرة ، اذ لا تسند الا لكبار العلماء الذين بلغوا درجة عالية من العلم والنزاهة والمقدرة الفائقة على التبليغ والتعليم .

وصاحبنا الجديد هو محمد بن محمد بن يوسف بن الصالح الدمشقي القفصي ، ويلقب ايضاً بشمس الدين .

لا نعلم اين ولد ، واكبر الظن ان أباه هاجر من قفصة الى دمشق ، وولد هو بها عام ٧٠١ هـ / ١٣٠١ م وكانت وفاته بها ايضا في ربيع الأول من عام ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م عن ثلاث وسبعين سنة ، كما سجلت لنا ذلك مصادره[١١] .

وكالعادة لا تمدنا هذه المصادر باكثر من ذلك فليس لنا ـ والحالة هذه ـ ان نجتهد او نفترض .. اذ لا اجتهاد بدون وثيقة .

٧ ـ عبد الله القفصي

نقترب أكثر من حدود تونس، ونمكث قليلا بالقاهرة لنسجل حضور أحد علماء قفصة بها ، وانتصابه في محاكمها ومساجدها ومدارسها مفتياً ومدرساً وموقعاً لدى قضاتها . أي مسجلا لمحاضرها وعقودها . ولا شك انه كان على درجة كبيرة من العلم والفقه والتدين حتى صار مرجعا يعتمد عليه المسلمون المعاصرون له في شؤون دينهم ودنياهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولئن لم يترك ـ على ما يبدو ـ مؤلفات أو آثاراً علمية من أي نوع ، إن عناية ابن حجر والسيوطي وغيرهما من المؤرخين به ، لها ـ بدون شك ـ دلالة واضحة على اهمية الرجل ومكانته في عصره . قال عنه اكثرهم :

« عبد الله بن عبد الرحمن القفصي المالكي .. كان مشهورا بالعلم منصوبا للفتوى . وكان يوقع عند الحكام . مات في ثالث رمضان سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م »[١٢] واثنى عليه ابن حجر في الدرر[١٣] .

٨ ـ ابن عقيبة

أبو يحي أبو بكر بن عقيبة القفصي المتوفى بقفصة عام ٨٢٨ هـ / ١٤٢٥ م .

الحديث عن ابن عقيبة بايجاز واختصار يكون فيه اجحاف وعقوق ، لان التفاصيل عنه كثيرة والمصادر متعددة ، وله أشعار وبحوث كثيرة في الفقه والنحو واللغة وتفسير القرآن ، يمكن ضبطها والاستفادة منها في الترجمة له والتعريف به على أوفى صورة ممكنة . يضاف الى ذلك اننا وثقنا أسماء خمسة آخرين من أسرته ، كان لهم أيضا دور في الحياة العلمية والادبية على مدى قرن ونصف قرن من الزمان .

لذلك نترك الحديث عنه وعنهم جميعا الى بحث مستقل في مناسبة اخرى .

ونشير فقط الى ظاهرة ممتازة اختصت بها هذه الأسرة ، وهي أنهم جميعا مكثوا في قفصة ، ولم يغتربوا عنها الا للتعليم بتونس . ثم كانوا يعودون لمدينتهم . فكانوا لذلك اكثر تعلقا بارضهم ، واشعاعاً بين أهلهم وعشيرتهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونضيف هنا أن جدهم الاعلى كان معاصرا لابن راشد .. وولد أبو يحي ـ صاحب الضريح والمزار المعروف بقفصة ـ منتصف القرن الثامن ، أي بعد نحو عشرين عاما من وفاة ابن راشد .

الاحالات والتعاليق

(١) وصف افريقيا ص ١٤٤

(٢) طبع الأول في الاستانة عام ١٢٩٨ ، بعنوان « نثار الازهار » ، وأعيد الطبع مع الجزء الثاني في بيروت عام ١٩٨٠

(٣) مصر : يقصد بها عاصمتها القاهرة .

(٤) ج ٢ ص ٩٨ ـ ٩٩ ط٣

(٥) ج ٢ ٢٤٧ ط٣ بيروت ١٩٨٤ م

(٦) الطالع السعيد ص ٥٨٦ والوافي جـ ٤ ص ٢٠٦

(٧) وفيات ابن القنفذ ص ٥٥

(٨) المرجع نفسه ص ٥٥

(٩) ج ٤ ص ٦٧ ، وانظر المقريزي (السلوك ٢ / ٨٨٥)

(١٠) مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين ، [رحلة ابن بطوطة ١ : ٥٧ ط القاهرة ١٩٣٨ م / المجلة]

(١١) شذرات الذهب ج ٦ ص ٢٣٦ ، والدارس في تاريخ المدارس ح ١ ص ٧٢ ـ ٧٤

(١٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٦ . ذيل الديباج ص ١٤٨ ، شذرات الذهب ٦ / ٢٤٢

(١٣) ج ٢ ص ٣٧٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net